مجلة الموروث | مجلد: 02عدد: 01السنة 2020
ص 272.- ص 286 | ISSN:2710-8503/EISSN:2992-1538

# التوظيف الحداثي وتحولات الخطاب العربي المعاصر.

# Title of the article, Modernist recruitment and transformations of contemporary Arab discourse.

**د . ناصر بعداش .**

**جامعة ميلة (الجزائر).**

البريد الإلكتروني:**lettrearab@gmail.com**



| تاريخ الإرسال:2020/04/21 | تاريخ القبول:2020/05/10 | تاريخ النشر :2020/05/30 |
|---|---|---|



## مُلخّصُ البَحثِ

الحداثة تيار جارف وقع فيه الفكر الغربي منذ عقود من الزمن، و كان لهذا التيار أثار كبيرة على العقل البشري في ذلك الوقت، وقد انعكس كل ذلك على الإبداعات التي ألّفها أصحابها ومحاكاتهم للواقع الجديد، وبعد انفراط المنظومة الحداثية وسقوطها في وحل الشك والعبثية، أصبحت فلسفة لا مركزية، تعادي في أعظم تجلياتها فكرة الثبات والنظام، سواء أكان ثباتا ونظاما دينيا أم إنسانيا، فأضحى العالم في نظرها نسقا سائلا بلا يقين أو معنى أو غاية .

ووفق هذه المعطيات نفسها بدأ الفكر الغربي مرحلة الولوج إلى مرحلة جديدة أطلق عليها فيما بعد :مرحلة ما بعد الحداثة، وهذه البهرجة الجديدة هو ما حاكته الحداثة العربية المقلدة لهذا التيار الجديد، لكن بنوع من التحدي الذي سيحتم عليها التصادم مع حاجز البيئة والدين.

ومن هذا المنطلق تكون الإشكالية المطروحة في هذا الصدد :

- ما الحداثة وما بعد الحداثة؟
- كيف تجاوز الغرب الحداثة وما بعدها ؟
- كيف تلقى الفكر العربي الحداثة وما بعدها؟
- هل للتوظيف الحداثي تأثير على العقل العربي؟
- إلى أي مدى كانت التحولات الخطابية العربية خادمة للفكر العربي؟

وللإجابة عن هذه الأسئلة سنتتبع المنهج التكاملي للوصول إلى نتائج تخدم البحث.

**الكلمات المفتاح** : حداثة ؛ ما بعد حداثة ؛ خطاب ؛ تحولات ؛ فكر عربي .

**summary:**

**Modernist recruitment and transformations of contemporary Arab discourse.**

Modernity a sweeping current occurred in Western thought for decades, and this trend had a great impact on the human mind at the time, all of this has been reflected on the innovations created by their owners and simulated of the new reality, and after the separation of the modernist system and fall in the solution of doubt and absurdity, In its greatest manifestation, the idea of stability and order, whether it is a system of stability or a religious or human system, the world in its view has become a fluid pattern without any certainty, meaning or purpose.

According to these same data, Western thought began the process of entering a new phase, which was later called postmodernism. This new glamor is what imitated Arab modernism imitates this new trend, but with a kind of challenge, which will have to collide with the barrier of environment and religion.

In this regard, the problem is:

- What is modernity and postmodernism?

How did the West overcome modernity and beyond?

- How did Arab thought receive modernity and beyond?

- Does modernist employment influence the Arab mind?

To what extent were the Arab rhetorical transformations useful to Arab thought?

To answer these questions, we will follow the integrated approach to reach results that serve the research.

**Keywords**: modernity, postmodernism, discourse, transformations, Arab thought.

المرسل:lettrearab@gmail.com

مجلة الموروث                                   مجلد: 02عدد: 01السنة 2020
ص 272.- ص 286                                   ISSN:2710-8503/EISSN:2992-1538

**مقدمة:**

إن مصطلح الحداثة مصطلح جديد على الساحة الأدبية العربية، وهو تيار ظهر فيه الفكر الغربي منذ عقود من الزمن، وكان لهذا التيار انعكاسات كبيرة أثرت على العقل البشري في ذلك الوقت، وقد تجلى ذلك في الإبداعات التي ألفها أصحابها عند محاكاتهم للواقع الجديد الذي فرضته الظروف القاهرة في ذلك الوقت، وبعد انفراط المنظومة الحداثية وسقوطها في وحل الشك والعبثية؛ أصبحت فلسفة لا مركزية تعادي في أعظم تجلياتها فكرة الثبات والنظام، سواء أكان نظاما دينيا أم إنسانيا، وأصبح المعتقد السائد الثورة على كل القيم الموروثة منها والمبتدعة، ومن هنا أضحى العالم في نظرها نسقا سائلا بلا معنى، وبهذا سادت العبثية تلك المجتمعات وفقد العلم واليقين معناهما الحقيقي.

ومن هذا المنطلق والمعطيات نفسها بدأ الفكر الغربي في الولوج إلى مرحلة جديدة أطلق عليها فيما بعد: مرحلة ما بعد الحداثة، وفي خضم تلك التطورات الحاصلة في العالم الغربي والبهرجة الجديدة، لم يكن الفكر العربي بمعزل عن كل هذه التيارات الحداثية الجارفة، بل وأصبح العربي منقادا أيما انقياد لما تمليه عليه هذه الحضارة البائسة، وأصبح الواحد منهم إمعة يتبع كل ناعق من الضفة الأخرى دون مراعاة لأدنى الظروف المفروضة على العربي، ولعل هذه الأفكار الجديدة والخطيرة هو ما حاكته الحداثة العربية المقلدة لهذا التيار الجديد، لكن بنوع من التحدي الذي سيحتم عليها التصادم مع حاجز البيئة والدين والعادات والتقاليد الموروثة أبا عن جد.

وفي هذا الجو الحداثي غير المستقر بما فيه من معطيات التمرد بعيدا عن المنطقة العربية؛ تحضر مفاهيم كثيرة تريد إيجاد مكان للتوظيف في الخطاب العربي المعاصر، ومن هذا المنطلق أراد أصحاب الفكر المشبوه نقل الأفكار التي تجاوزها الزمن هناك في عالم العبث الغربي، ومحاولة بثها وبث سمومها في العالم العربي البريء والمسالم في كل الأحوال، ومن بين هذه المفاهيم نجد: "المنطق متعدد القيم" الذي تبناه المفكرون العرب الذين سلبت لبهم فكرة "ما بعد الحداثة"، محاولين خلق بعض المفاهيم التي من شأنها ترسيخ هذا التيار في العالم العربي بعيدا عن الدين، فهذا "محمد أركون" ينادي في هذا السياق أبعاد أسس نظام العقائد الإسلامية، وتطبيق معايير "المنطق التعدُّدي" في نقد التراث، وتجاوز ثنائياته المتناقضة، كـ "العقل والإيمان" و"الحقيقة والضلال" و"الصواب والخطأ" و"الخير والشر"، وعلى خطوات مشروع أركون يسير الناقد "علي حرب"،

وباللغة نفسها يرفض ما يسميه بـ "خداع التصنيفات والثنائيات"، فلا حدود في رأيه بين "العقل واللاعقل" و"الحقيقة والوهم" و"الصدق والكذب" و"الإيمان والكفر".

1- **العقلانية العربية:**

إن العقلانية العربية لم تكتسب شرعيتها كمفهوم واقعي في الفكر العربي، بل هي إحدى المسلمات المعرفية التي اكتسحت ميدان الفكر العربي بصفة تدريجية ومراوغة، وبعد انتشارها في أوساط بعض العقول نجدها تفرض نفسها بشكل ملفت للانتباه، وبحسب المقولة العربية الشهيرة "كل إناء بما فيه ينضح" فقد كان إناء العربي فارغا في تلك الفترة؛ مما سهل على بعض المراوغين نقل الأفكار الخطيرة من عالم مختلف تماما إلى عقل وبيئة شديدة الاختلاف عما هو سائد هناك عند الغرب، وبالتالي تقبل العقل العربي هذه الأفكار بكل سهولة، بل وراح الكثير منهم يروج لها دونما تمحيص ولا أدنى غربلة.

وهذا كان حال الكثير من المثقفين الذين كان التسرع دأبهم، ولعل الرعية كانت أكثر تسرعا من مثقفيها لتنتصر لهذه الأفكار في محاولة لنقد الواقع والتمرد عليه، وكان ذلك بعد التعرف على كتب ومصادر حملت في طياتها المراحل المتلاحقة للنهضة الأوروبية في عصورها القديمة الأولى، ولعل اطلاع الفكر العربي على العقلانية كان إثر التلاقح مع الغرب بظهور الترجمة وتخطي الأقطار والاحتكاك بالغرب، وبالتالي فهذا الاطلاع على العقلية الغربية يحذوه الحذر الشديد إلى ما ستؤول إليه الأفكار بعد صراعها مع مصطلحات جديدة من مثل المعقول وغير المعقول، مع الإيمان بقدرة العقل على تفسيرها، إلا أن الفكر لا يزال عاجزا على المواجهة اللاعقلانية السائدة، بل وهو عاجز كذلك عن الإتيان بتنظير دقيق لعقلنة الواقع، فهو لا يزال يعاني صدمة التحولات الخطابية التي تقع أمام الملأ من غير مساهمة في إعادة إنتاجها، أو ربما تعريضها للغربلة التي من شانها تميز الغث من السمين؛ وطرح الزائف وتقبل الأشياء الايجابية التي تخدم الواقع العربي المضطرب، كما لا يزال يأخذ منها مواقف تحددها مرجعية تقليدية عوض أن تكون مرجعية ذات معقولية واضحة مبنية على التجريب، غير أن الرجوع إلى معقولية التفكير يفيد في تحرر الفكر من المرجعية التقليدية الضيقة، والخروج بها إلى أفق التغيير والاستبدال، ومن ثمة فإن

العقل هو مفتاح الحداثة التي ترتقي بالإنسان إلى درجة الكمال كما يعتقدون، والمعقولية هي سبيل التحديث واكتشاف النافع المفيد لأمة فقد هويتها، لذا نجد الفكر العربي في ذلك الوقت تميز بثلاث مستويات من العقلانية :

***المستوى الأول** : التعامل مع لا عقلانية مستوردة من العالم الغربي، أو التعامل مع عقلانية تجاوزها الزمن وفقدت معناها بعد التشبع من أفكارها الزائفة، وهنا نستطيع أن نتمثلها في ذلك الموروث القديم مجسدا في تلك الرؤى الخيالية القريبة من عالم المثل.

***المستوى الثاني** :وجود عقلانية متعالية لأنها مكتسبة عن الآخر، مع العلم أن المغلوب مولع بإتباع الغالب، فكل ما يستورد من أفكار يجب أن يتبناه العربي على شوائبه الزائدة، وهنا نجد تلك الانفعالية الكبيرة تجاه آليات الحضارة الحديثة التي عاشها الغرب أيام النهضة، و ذلك ما مثله فكر النهضة الحديثة في القرنين الأخيرين.

***المستوى الثالث** : وفيه بدأ التأسيس لعقلانية جديدة تواكب الركب الحضاري، وذلك من خلال الاتكاء على المناهج المعاصرة المستحدثة، واستيعاب الطروحات الكثيرة التي تتفق على منطلق "النهوض" وتختلف في الرؤية، ومن هنا فإن العمل على تحقيق هذا النهوض؛ يستدعي تكريس جهد كبير من قبل المثقفين العرب بغية البرهنة على ضعف الأسس المنطقية لهذا الجانب أو ذاك من الثقافة العربية الإسلامية التقليدية، أو قوة هذه الأسس في هذا الميدان أو ذاك من الفكر العربي الإسلامي.

## 2- الخطاب الإسلامي الحديث:

تعددت الخطابات الإسلامية في هذا العصر بتعدد التيارات المختلفة، وبالتالي فإن الأزمة الحالية؛ والتي تتخبط فيها الكثير من الدولة العربية هو سوء فهم الواقع الذي اختاره الله تعالى للكائن العربي، ومحاولة نقده ومن ثم تخطيه إلى واقع أكثر تحررا من تلك الحدود الربانية التي أصبح يراها قيودا تحد من حريته وتكبيلا لأفكاره، وهذا من إفرازات الحداثة التي عصفت ريحها على كل الموروثات الحضارية الخاصة بالدولة الإسلامية الحديثة، وقد" ولدت تركة هائلة من المشكلات

مجلد: 02عدد: 01السنة 2020
ISSN:2710-8503/EISSN:2992-1538

الكونية غير المسبوقة، تهدد مستقبل الإنسان، ومستقبل الكرة الأرضية التي يعيش عليها تهديدا جديا، فقد نتجت عن النمو الأسّي للمعلومات والبيانات كتلة ضخمة من المعرفة، كان لابد من تقسيمها إلى حقول وتخصصات، من اجل التفاعل معها، وكلما زادت ضخامة هذه الكتلة لزم الاستمرار في التجزئة والتقسيم"[1]، وهذا حالة التركة الإسلامية الموروثة التي تعد كتلة ضخمة من التشريعات الإلهية الخادمة للبشرية جمعاء، وقد فهمها الأولون دون تأويلات خاطئة تمس بالعقيدة والشرائع الأخرى، ولكن بعد المحاولات البائسة لتقسيم وتجزئة هذه التركة توصلنا إلى تعطيل بعض الأحكام، وفهم أخرى فهما خاطئا دون الرجوع إلى الدليل، من هنا محاولة تعطيل الحكم بالشريعة الإسلامية التي ساد بها الأولون أيام السلف، ومع لحظة سقوط الخلافة العثمانية ومؤامرة إلغاء منصب الخلافة وتقسيم ارث الرجل المريض، تم الاتفاق على استبدال المعتقدات والموروثات القديمة، بل وأصبحت العقلية العربية أكثر تفتحا لقبول الوافد الجديد، وأصبح الكثير يعتقد أن الخلاصَ يقتضي إعادة بناء تلك العقلانية في ضوء الأسس التي قامت عليها في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، مقدما قراءات متنوعة للسيرة النبوية والتاريخ الإسلامي والتجربة السياسية التاريخية، وطارحاً مقولة "الدولة الإسلامية" المرتكزة على مقولة الحاكمية أو إحياء "نموذج الخلافة" القائمة على الدين، بوصفها المخرج من الحالة الجاهلية التي يشهدها عالم العرب والمسلمين، وهو قد يستعيد نموذجَ الدولة الإسلامية في أشكالها التاريخية، على اعتبار أن النموذج السياسي الإسلامي نابع من فهم شمولية الإسلام وفاعلية الدين في قضايا الاجتماع السياسي والإنساني، كما يوجد توجه يهدف إلى تبني فكرة أسلمة الدولة الحديثة وإضفاء الطابع الديني والأخلاقي على بيروقراطيتها وهياكلها.

لكن هذه الشمولية تصطدم في كل الأحوال ببعض المثقفين الذين أسرت لبهم الحداثة الغربية، فنجدهم دوما في انتقاداتهم لمبدأ التكامل والشمول، وهذا ما عجل ببروز الخلافات حول المسائل الصغيرة التي لا تحتاج إلى كثير الإمعان، وربما تقسيمها إلى جزئيات لتشتيت شملها، نعم إن التجزئة المستمرة " للمعرفة المتزايدة في النمو أنتجت أنظمة تربوية ومجتمعات مغرقة في التجزئة والتخصص الفرعي، وأنتجت —من ثم- أفرادا يركزون بطريقة مبالغ فيها على أجزاء الحقيقة المختزلة، الراهنة، والمباشرة، ويفتقدون بطريقة متزايدة الوحدة التاريخية للصورة الكبيرة الكلية الأقل

وضوحا"[2]، هذا ما يحدث فعلا داخل مجتمعاتنا العربية الأقل نضجا والأكثر تقليدا، وربما عدم الرضا بالمعطيات العقدية المفروضة من قبل الإرادة الإلهية ما دفع بالكثير من المفكرين إلى محاولة إيجاد البديل الأكثر تحررا، فانقسمت الكليات إلى جزئيات أكثر تخصيصا للمسائل الكبرى، وانقسم المفكرون بين مؤيد ومعارض وسادت الفوضى، وحدث ذلك التشويش على العقل البشري العربي الذي أصبح تائها في دوامة اللاجدوى، وانتقل تفكيره من الأقل إلى الأكثر متناسيا التفكير من الأكثر إلى الأقل، وبعبارة أخرى " في الوقت الذي أصبحنا فيه أناسا نعرف أكثر فأكثر عن الأشياء الأقل فالأقل، فإننا في الوقت نفسه للأسف أصبحنا أناسا نعرف اقل فاقل عن الأكثر فالأكثر"[3] ، لقد أصبح الواحد منا –رغم الثقافة المحدودة- يخوض في المسائل الدينية الكبرى؛ بل ويصدر بعض الفتاوى بما يناسب حالته الاجتماعية، ومن هنا سادت الفوضى والعبثية في مجتمعاتنا.

لقد تعرض هذا الخطاب لمراجعات فكرية ومنهجية من الداخل الإسلامي، كما عرف تطورا ملحوظا في مفاهيمه وتدقيقا لأطروحاته وتصوراته الفكرية والسياسية، خصوصا مع تيار الإسلام التنويري، في مقولة "الدولة المدنية الغربية" وإجراء المصالحة بين الإسلام والديمقراطية، ونقد الخيارات لتجربة تاريخية معينة على الواقع المعاصر، والمحاولات الطوباوية لاستعادة حلم الخلافة بشكل متعثر لا يكاد يميز بين القيم الملهمة والمرجعيات الحاكمة والأشكال التنظيمية، فيعجز عن فك الارتباط بين واقع التجربة التاريخية للنموذج السياسي الإسلامي؛ سواء في تجربة الخلافة الراشدة أو السلطانية من جهة، وروح الإسلام الدافعة وقيمه الحضارية ومبادئه الخالدة من جهة أخرى.

وإذا أردنا أن نكون واقعين في هذا العالم الزائف؛ فعلينا التوجه نحو إعادة بناء الدولة الإسلامية المعاصرة في ضوء الخصوصية الإسلامية الحضارية، مع نوع من الانفتاح –غير الجارف والتمسك بالهوية الإسلامية- على خبرات الأمم الأخرى، ومكتسبات التحديث الخاص بكل الأصعدة، ومراعاة التقلبات الحاصلة في هذا العصر، فضلا عن التجديد النقدي للتراث السياسي الإسلامي، والتفاعل الفعال والايجابي مع منظومة الحداثة الغربية، لإبداع الحلول العملية لمشاكل الحاضر العربي وإشكالاته المتعددة، لا العودة والخوض في إشكالات الماضي الذي تجاوزه الزمن

مجلة الموروث — مجلد: 02عدد: 01السنة 2020
ص 272.- ص 286 — ISSN:2710-8503/EISSN:2992-1538

كان يعتقد الكثير، وهذا ما برز في التوجه نحو أولوية التركيز على بناء الدولة الديمقراطية وإقرار شكل من التمييز والإبداع الخلاق الذي يعود بالنفع على الأمة الإسلامية.

### 3-الفكر العربي والخطاب الراهن :

يعتبر الفكر العربي في الوقت الراهن فكرا تبعيا لما يمليه الخطاب الغربي بكل محمولاته، فكل القضايا التي يطرحها المشاركون في صنع الخطاب العربي المعاصر؛ إنما تعود إلى موضوعات مطروقة منذ أكثر من قرن، ولم تزل بالنسبة له ذات صلاحية، أو أنها قضايا مجتمع آخر في زمان ومكان آخرين، لقد تملص العربي من واقعه عبر الخوض في غمار تجربة مقلدة لواقع غير الذي يحياه، وزمان غير الزمان الذي يعيشه، في محاولة لتطبيق خطاب غربي لا يتناسب والمعطيات العربية، وبالتالي فالقيام بدراسة تحليلية أو تقييمية للخطاب العربي ستكشف "عن آلية تفكير واحدة تحكم عموم الخطاب العربي، تتمثل في مجموعة مسلّمات لا تزال هي منذ عصر النهضة (أي القرن التاسع عشر للميلاد) أولى هذه المسلمات تتركز في «الاستبداد الفكري» الذي يستند إلى فرضية مضمرة هي «امتلاك الحقيقة»، والذي يؤدي بالضرورة إلى نفي الآخر"[4]، وقد تمكنت هذه العقلية بشكل كبير منذ ظهور النظم الأيديولوجية في المنطقة، فالحداثيون يرون الآخرين رجعيين، ودعاة القديم يرون المتقدمين أنصارا للحداثة والاستعمار، ويتمتع الخطاب العربي في مرحلة التسعينيات من القرن الماضي وما رافقها من تقلبات في الحالة العامة للمجتمع.

إن محاولة الولوج في المنطق الأيديولوجي مع الآخرين يعد "بمثابة الخروج من «المعرفة» والبحث العلمي، وهو ما حدث فعلاً، فقد أدت ظاهرة الاستبداد الفكري إلى استحكام المنطق الأيديولوجي، وهذا المنطق أدى بدوره إلى «انغلاق النسق المعرفي» أي انغلاق تطور المعرفة (الفلسفيّة) المتعلقة بمشروعات النهضة ومشكلات الواقع والدخول في حلقات مفرغة"[5]، وهذا ما يعبر عن توقف الخطاب العربي تبني تغييرات جذرية في مسلمات النسق أو في قضاياه الكلية، وبالتالي فالعلاقة بين المعرفة والسلطة والثروة في التراث الإسلامي نجدها تقوم على أساس اكتساب العلم سلطة الذاتية واستقلاليته عن الثروة والسلطة السياسية، لكنه في كل الأحوال لم يكن خاضعاً للثروة، بل كانت الثروة توظف لدفع ورفع العلم وتحقيق استقلاله، وبتحطيم المؤسسات الوقفية أصبح العلم أضعف الأطراف الثلاثة "السلطة السياسية، الثروة، العلم"، فقد تم توظيفه من قبل


University Center of Tamanghasset Algeria — المركز الجامعي لتامنغست – الجزائر

الثروة وسلطة القوة مع استعمال المفكرين لخدمة النظام، ومن هنا فقد البحث العلمي استقلاليته، وأخضع بعد ذلك لإحدى القوتين (السلطة أو الثروة) أو لكليهما معا، وهذا ما انجر عنه تغريب وتغييب للبحث العلمي عن المجتمع.

في هذا الوقت بالذات نلاحظ انعدم عنصر الزمان في الفكر العربي، إذ اصبح يتلاشى يوما بعد يوم، وينصهر تدريجيا فاتحا المجال للذوبان في فكر الآخر الغربي، وما يفسر ذلك أن الأزمات الأولى في العالم الإسلامي في مرحلة ما هي الأزمة نفسها اليوم، وما قيل عن الزمان يمكن بشكل أو بآخر أن يطلق على المكان، فدرجة الانحطاط نفسها منذ المرحلة الاستعمارية إلى اليوم، لأن كل التجارب المطبقة في أوربا يجب أن تصلح للتطبيق عندنا وفي عالمنا العربي، وبالتالي أصبحنا نتحدث عن زمن تميز بالتغير الاجتماعي الزائف والسريع في الآن نفسه، لقد تآكلت كل الفرضيات والافتراضات التي انطلق منها المفكرون العرب، لأنهم حاولوا الانغماس في زمان ومكان زائفين، متناسين ماضيهم العريق وموروثهم الحضاري التليد، واعتقدوا بأنها لم تعد تناسب واقعهم الراهن، وهذا ما فعله أنصار الحداثة الغربية لما اعتقدوا أن " الأنماط والمقولات التي ورثناها من الماضي لم تعد تناسب الواقع الملموس الذي يعيشه الجيل الجديد"[6]، لذا وقعوا في شرك الشك والعبثية بعد محاولات التغيير، وهو ما وقع فيه راهننا الفكري تماما.

## 4- الصدق والكذب في العقل البشري :

تشكل هذه الثنائية حلقة شك كبير في المعتقدات الموروثة والسائدة، وقد أصبحت مهيمنة على العقل البشري حتى بعد التطوُّر الحاصل على مستوى فكر الفرد المعاصر، لا كما يدَّعيه علماء المنطق الحداثيون من فلاسفة ومناطقة العالم الغربي أمثال برترند رسل ومن سار على نهجه أثناء بناء منطقهم الرَّمزي، وقد كان هدفهم الكبير لا يتجاوز التمييز الدقيق المتناهي بالمنطق الرياضي بين ما هو صادق وما هو كاذب، بل أخذت الثورة الشكية تتصاعد حدتها في العقل الغربي المتمرد على كل المعطيات الموروثة، وانعكست دائرة رحاها على تياراته الفلسفية واتّجاهاته المنطقية حتى ابتعد عن المركزية الام التي كانت تفرض سيطرتها على جميع الأصعدة، وتجرد من ثوابته الدينية والعقلية، ووقع في فخ العَبَثية والفوضى، حينها بدأت الأسئلة الفلسفيَّة الشكية بالظهور، مثل هل يمتلك العقل البشري القدرة على تجاوز الجزئيات وإدراك الكُليَّات.

لقد أدت المعطيات الجديدة إلى الانحراف عن المسار الواقعي والتهرب منه، وهذا ما سمح للمذهب التجريبي الحسي إلى ملأ الواقع بالمعطيات الشكيَّة الزاحفة على كل المبادئ الموروثة، وما ذلك إلا سعيا إلى هدم ضرورة المبادئ الأولية للعقل، ومن بين هؤلاء الداعين إلى هذا المبدأ نجد الفيلسوف "جون لوك" و"ديفيد هيوم"، وصاحب الفلسفة العبثية "نيتشه", ومن هذه المنطلقات أصبحت الفلسفة الغربية تتخبط في وحل الشك حيث انساقت معها المنظومة المنطقية إلى الهلاك والغرق في دوامة الفوضى العارمة، وظهر في خضم ذلك "المنطق متعدّد القيم"ليخطو خطواته الأولى بـ "المنطق ثلاثي القيمة"، ليتيه في عراء الفوضى وصولا إلى "المنطق لانهائي القيمة"، وكلاهما يطمحان إلى إنشاء أنساق منطقيَّة جديدة تتجاوز قيمتي ثنائية "الصدق والكذب"، والاتكاء على قيم للصدق لتهدم بها قوانين العقل ومبادئه الفطرية، فمن الممكن مثلا الحكم على الشيء بالوجود والعدم في جهة ولحظة واحدة، ولا يستحيل "الثالث المرفوع" بأن يكون الشيء لا موجود ولا معدوم.

## 5- مبدأ الغموض والمعرفة البشرية:

إن مصطلح الغموض من المبادئ التي تستلهم منها المعرفة البشرية قضياها، وبالتالي فهو الدافع إلى الغوص في المنطق، ومنه تصبح اللغة الجارية التي يكتنفها غموض التصور إلى لغة مثالية متعالية مجردة من المعاني والدلالات، ودخل "المنطق" بذلك في مرحلة الصورية المتطرفة، وقد ظهر هذا المصطلح في بداياته على يد فلاسفة التحليل، مثل: "برتراند رسل" و"فتجنشتين"، ولم يدم طويلا حتى اعترفا هذين الأخيرين "بإخفاقهما في تعميم تلك اللغة على الفلسفة عامة، والعودة إلى "اللغة العادية" الواقعية، ذلك لأن "الغموض" ازداد شراسة في اللغة المثالية"[7], ومع ذلك فقد حققت تلك اللغة الرمزية أغراض ثورة "المنطق الرَّمزي", لكنها لم تكن ثورة على اللغة فحسب، بل تجاوزتها لتضرب أسسه المتمثلة في "مبادئه الأولية"، ليشهد العالم ثورة عارمة على المنطق الجديد، لينشأ بعد ذلك "المنطق ثلاثي القيمة" الذي أضاف قيمة "اللامعنى" إلى قيمتي "الصدق والكذب"، وافتتح ذلك الطور الجديد "سوران هالدن"، في مقالة له بعنوان "منطق الهُرَاء"[8]، ليرفع بهذا المنطق قيمتي الصدق والكذب عن الكلمات العشوائية غير المنظومة ويعطيها قيمة ثالثة أطلق عليها قيمة "اللامعنى"، وقد أيد "فتجنشتين" تلك القيمة الثالثة، وبادر بتطبيقها على العبارات

مجلة الموروث مجلد: 02عدد: 01السنة 2020
ص 272.- ص 286 ISSN:2710-8503/EISSN:2992-1538

الميتافيزيقية، وتابعته على ذلك "الوضعية المنطقية"، وقد تبنى هذه الفكرة الدكتور زكي نجيب محمود مُشيدا بها[9],

وعلى الرغم من التجاذبات التي تحكم هذا المنطق وهذه المسائل الخطيرة، إلا أن المنطق استمر على ما هو عليه من مبادئ جارفة، وبقي مبدأ الغموض هو السائد في ذلك الوقت، لكنه بقي متماسكًا لثبات معاييره ببعض القيم، ومع مرور الوقت بدأ هذا التماسك بالانحلال والتلاشي، ليصبح منطقًا ذا سيولة لا متناهية من القيم، في بداية هذا التحول الخطير تردَّد العقل المنطقي في ذلك، حتى أن "تشارلز بيرس" قال هَازِئًا من فعله . بعد محاولته تجاوز مبدأ الثالث المرفوع . : "كل هذا لا يعدو أن يكون هُرَاء"[10]، وبعد هذا الإقرار من قبل أهل العبثية نجد العقل العربي يرحب أيما ترحيب بمثل هذه الأفكار الخطيرة على الأمة الإسلامية جمعاء، ولهذا الحد وصل المنطق الشكي لضرب عروة الإسلام الوثقى، فأين مفكرونا الحداثيين الذي أخذوا على عاتقهم تصحيح مسار الراهن العربي، ووضع القطار على السكة الصحيحة بعد أن أخرجوه عن مساره بضرب الموروث عرض الحائط.

## 6-الغموض وقوانين الفكر:

إن مبدأ الغموض في هذه المرحلة الحساسة التي يمر بها الواقع العربي المعاصر، تكاد تنحصر علاقته مع تلك القوانين الفطرية، بل ونجده ينحصر باللغة في تأكيد صدق أو كذب وقائع زمانية ومكانية محدَّدة، تمس بالخصوص تلك المرحلة القديمة التي ساد فيها الواقع العربي سيادته، وبالتالي فلا شأن لها بمشكلة "الغموض"، لأن هذا الأخير ينطلق أول ما ينطلق منه من المعرفة بواقع القضية التي تخبرنا بالحالة الزمانية و المكانية لشيء ما، وإن كان هناك قدر من الإبهام في اللغة؛ فما هو إلا انعكاس طبيعي لغموض الرؤية المعرفية لدينا، وسنضرب مثالا من واقع الحس المشترك، وآخر من الواقع العلمي:

### الأول:

يتعلق بكل ما يضربه بعض المناطقة المحدثين لإثبات قيم متوسطة بين "الصدق والكذب"، كقولهم: "فلان غبي"، فإن هناك لحظة بعينها ينتقل بها "فلان" من مرحلة الذكاء إلى مرحلة الغباوة مرورًا باللامعنى، لكن تفتقد تلك المراحل إلى تحديد زمن دقيق، ومن ثَم لا نعرف تحديدًا متى أصبح فلان غبيا.

تلقي تلك المراحل الانتقالية بظلالٍ من الشك على مبادئ العقل الثلاثة، لأن محمول القضية . وهو "فلان" في تغير مستمر، يحول دون ثبات قيمة "الصدق" للقضية، فإن التغير يعني إمكانية التحوُّل من "الصدق" إلى "الكذب" والعكس، فليست ثمة هوية مطلقة لواقع موضوع القضية، فصدور الأحكام المتناقضة على "فلان" ممكن بناء على صيرورته.

**الثاني:**

منطلقه من مبدأ "اللايقين" الذي رتب عليه المناطقة المحدثون حتمية تجاوز صدق قوانين الفكر الثلاثة ونفي ضرورة مبدأ السببية القبلي, غير أن الوهن بقي يدب في هذا المبدأ مما أدى إلى إضعافه، ويرجع السبب في ذلك إلى غموض الواقع الفيزيائي المتعلق بعالم الماورائي المتأثر بقدرة المقاييس والأدوات العلمية، وبالتالي مازالت تلك النظريات تعالج أنواعًا من القصور العلمي في فهم ذلك الواقع الفيزيائي، وبقى الباب مفتوحًا لتطور النظريات العلمية في كشف غموضه, ومن هنا فالغموض من هذا المنطلق يصبح ظاهرة "إبستيمولوجية" معرفية، يمكن إرجاعها إلى قصور الذات العارفة عن إدراك كل الحقائق، وضعف إمكانياتها الإدراكية بعيدة المدى، ونقصان وسائلها العلمية وأدواتها التجريبية في إزالة غموض الواقع.

**7- الحداثة وأوهام المعنى:**

بعد المرحلة الخطيرة التي آلت إليها المنظومة الحداثية الغربية، حيث سادت الفوضى الواقع المعيش لأطياف المجتمع الذي قاده مفكروه إلى الولوج إلى دوامة الجدوى ، ومحاولة الانفكاك من هذا الواقع وتبني واقع جديد مبني على مبدأ العقل، لكن هذا الأخير قاده إلى مزالق لم تكن في الحسبان، حيث اعتلت دوامة الشك والعبثية كافة نواحيه وأصبحت "فلسفةً لا مركزية"، تناقض في كل الأحوال فكرة الثبات والنظام، وتعدى الأمر إلى الثبات الديني الموروث، وأصبح العالم نسقًا بلا يقين, وقد حاكت الحداثة العربية ما جرى في الغرب محاكاة تامة، منسلخة بذلك من مبادئ الدين والهوية والتقاليد، وربما ضعف الفكر والعقل العربي هو السبب في الثورة على المبادئ والقيم بشكل يوحي بالتقهقر والانحطاط الفكري الرهيب، وما آل إليه فكر العربي في هذا الزمن من نخر من الداخل, كيف لا ومناخ العبثية يتفشى في مجتمع مسلم له من القيم الدينية ما يغنيه عن كل هذه الفوضى، إن مفاهيم "المنطق متعدد القيم" قد تبناها مفكروا "ما بعد الحداثة" لصناعة مفاهيم

تعتبر معاول هدم لأسس النظام الإسلامي، ومن بين هؤلاء نجد "محمد أركون" ينادي أثناء محاولة تقويض أسس نظام العقائد الإسلامية بتطبيق معايير "المنطق التعدُّدي" في نقد التراث، وتجاوز ثنائياته المتناقضة، كـ "العقل والإيمان" و"الحقيقة والضلال" و"الصواب والخطأ" و"الخير والشر"[11], من هنا فُتِح الباب على مصرعيه لولوج المشروع العبثي التقويضي عالم الفكر العربي المسالم, فها هو "علي حرب" يرفض ما يسميه بـ "خداع التصنيفات والثنائيات"، فلا حدود . في رأيه بين "العقل واللاعقل" و"الحقيقة والوهم" و"الصدق والكذب" و"الإيمان والكفر"[12], وربما كانت بعض الأمور غير مباشرة لولوج هذا المشروع التقويضي منها ما تسلل عبر المسلمات المنطقية إلى بعض أصحاب المشاريع التكاملية، كالمشروع الحجاجي التداولي عند الدكتور "طه عبد الرحمن"، الذي أقام فلسفته النقدية على فكرة "التداول"، أو المجال التداولي المستلزم "النسبيَّة الزمكانية" و "الجانب العملي"، في هذه الفكرة ينظر إلى حقيقة الدين والعقل، وكلتاهما حقيقتان نسبيتان لأنهما نتيجة للمجال التداولي "الزمكاني" النسبي, من هنا يصبح "العقل" مسؤولا عن إثبات الحقائق من جهة، ومتغيرا من جهة ثانية، أو بالمصطلح الذي وضعه طه "متكوثرا"، ومن هنا جاء نقده لـ "المنطق ثنائي القيمة"، ودعوته إلى تجديد "علم الكلام" بإعادة بنائه على مفاهيم "المنطق التعددي"، بدلًا من بنائه التقليدي على ثنائية "المنطق القديم"، "الحق والباطل" أو "الصدق والكذب"[13].

**خاتمة:**

وصفوة القول فإن المشروع الحداثي العربي ما هو إلا محاكاة للحداثة الغربية التي فقدت معناها عندهم، لتجد سبيلا معبدا في أفكارنا وعقولنا الفارغة، وهنا نحن بمثابة الإناء الفارغ الذي تملؤه بما شئت، إن التوظيف الحداثي ما هو إلا مشروع غربي عبثي غايته بث الفوضى والغموض في أوساط مجتمع له من المبادئ والقيم ما يؤهله إلى مصاف العارف الناقد لما يحاك له، وما تحولات الخطاب العربي إلا دليل على ضعف العقلية وقلة التفكير، ومنه نصل إلى النتائج التالية:

- إن الحداثة الغربية تيار جارف حطم القيم الدينية والأخلاقية للمجتمع الغربي.
- لقد انساق المفكر العربي نحو هذا التيار وتأثر به تأثرا سلبيا، انعكس على المجتمع برمته.
- كان للثورة على الموروث الديني العربي أثر سيء على الراهن العربي وعقليته المقلدة.

- إن التأثر الكبير بما يبثه الغرب من سموم في أوساط الأمة يؤدي في النهاية إلى زعزعتها؛ ومن ثم إضعافها والتمهيد لاحتلالها.
- لابد من الثورة على كل القيم الزائفة المستوردة، وتحكيم العقل وإتباع الشرع للخروج من دائرة التخلف.

## قائمة المصادر والمراجع:

---

[1] - فتحي حسن ملكاوي: منهجية التكامل المعرفي، مقدمات في المنهجية الإسلامية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هرندن، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، ط1، 2011،ص 29.

[2] -utke, allen, "the Re unification of knowledge: why? How? Where? When? In benson, G.glasberg. R.and . Griffith , B, perspectives on the unity and integration of knowledge. New York: peter lang. 1988,p 4.

[3] -ibid:p4.

[4] – نصر محمد عارف، وكمال عبد اللطيف: إشكاليات الخطاب العربي المعاصر، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر . دمشق الطبعة: الأولى، 2001م، ص 35.

[5] – المرجع نفسه، ص نفسها.

[6] – كاثرين بيلسي: الثقافة والواقع، نحو نظرية للنقد الثقافي، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، ط1، 2017، ص11.

[7] – محمود فهمي زيدان: في فلسفة اللغة، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ص 14.

[8] – صلاح عثمان: المنطق متعدد القيم بين درجات الصدق وحدود المعرفة، منشأة المعارف، الإسكندرية، 2002م، ص48, 56.

[9] – زكي نجيب محمود: موقف من الميتافيزيقا، دار الشروق، ط2، 1983، ص1.

[10] – صلاح عثمان: المنطق متعدد القيم , ص46.

[11] – محمد أركون: تاريخية الفكر العربي الإسلامي، ترجمة:هاشم صالح، مركز الإنماء القومي، ط2، 1996م، ص 24 . 25.

مجلة الموروث ‏ مجلد: 02عدد: 01السنة 2020
ص 272.- ص 286 ‏ ISSN:2710-8503/EISSN:2992-1538

[12] - علي حرب: أوهام الحداثة, قراءة في المشروع الأركوني، مجلة الاجتهاد، العدد: 21، 1993م، ص 89، 93.92.

[13] - طه عبد الرحمن: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 2، 2000م، ص133.